المشهد الحضري: الخلفية والإسقاط والحدث

حكايات مدائن: مدينة عمان (الجزء الخامس)

د. وليد أحمد السيد

-١-

خلفية المشهد

عمان: أصباغ وهذربات وخربشات معمارية

عمّان المدينة تتغير على الدوام؛ عمرانيا باطراد، واجتماعيا بتداخلات المتغيرات المرحلية التي يمر بها الإقليم وما تبثه من تغيرات ديموغرافية. وبرغم هذه التغيرات المتسارعة، فقد أبقى التاريخ، رحمة بها وبأهلها، في أكناف المسجد الحسيني الكبير، بعضا من ملامح الثبات أمام عواصف العولمة، ومسلسلا سمجا من «الهرطقات» المعمارية التي صبغت جزأها الغربي بأصباغ الحداثة والمدنية، وشيء من «تلقيطية»، من شرق وغرب وما بينهما، تمثل صراعا محموما بين جشع رأسمالي، معطوفا على جهل ثقافي لطبقة «مستغربة معماريا» اكتنزت بالدولارات بين ليلة وضحاها، كل ذلك ممزوجا مع «قلة ذوق مهنية» و«فرد عضلات معمارية»، في أتون ملتهب من «جاهلية معمارية» في القرن العشرين وما بعده، لا يرقب صغيرهم في كبيرهم إلّا ولا ذمة، يتبختر صغيرهم تبختر «الديكة»، كلّ كبير إذ ليس فيهم «دجاجة» واحدة، كلهم يرى نفسه «ملهم العمارة الأوحد»، جاء بما لم يجئ به الأوائل، يحمل أصباغه ويدور حيثما لاحت له فرصة، وعلى حين غفلة من المدينة وأهلها، صابغا وجه المدينة الدامي «بخربشات» و«هذربات» معمارية تحتاج لجيش من علماء الاجتماع العمراني لتحليلها ومعرفة كنه العبقرية التي جادت بها على المدينة وأهلها.

حوار صامت في مشهد حضري «صاخب»

وبعيدا عن هذا «الكوكتيل» البصري في فضاء المدينة العمراني، وفي محيط قلبها القديم، وأمام المسجد التاريخي الكبير، تنبسط ساحة فسيحة غير منتظمة، هي نتاج انحراف كتلة المسجد باتجاه الجنوب الشرقي نحو القبلة وامتداد شارع الملك طلال الذي يمر بطرفها بين الشرق والجنوب الغربي واصلا بين منطقة المدرج الروماني من جهة الشرق وبين الأسواق التاريخية التي تقع خلف الجامع باتجاه قاعة عمان غربا.

تحكي الساحة قصة حوار صامت شيق مع الواجهة الكبيرة للجامع التي تطل عليها من جهة، وحوار آخر «نزق» مع الشارع الصاخب بالسيارات من طرفها الشمالي من جهة أخرى. تراها من جهة المسجد وكأنها تستوي بالأرض مذعنة لعظمة واجهة المسجد المعمارية التاريخية الحجرية المهيبة التي اكتست بالنقوش والنحوت البديعة. تتلاقى ظلال واجهة الجامع مع أديم الساحة بحنان ووداعة. بين يدي واجهة الجامع التاريخية، ترسم الشمس ظلالا بعناية وأناة على المشهد الحضري بأكمله مع تعانق عقربي الساعة أو خصامهما. تسجد ظلال الواجهة الكبيرة الممتدة على الساحة، مع سجود المصلين المتعاقب داخل أروقة وقاعة المسجد الجامع. يتحرك المشهد كله في خشوع في حضرة بيت الله ويسجد الورى وظلالهم لخالقهم سجود شكر وعرفان بنعمة، أو طمعا بأجر وعفو ومغفرة، وتسجد معهم الواجهات، ظلالها، على خشبة المسرح الحضري المترامي أمامها، لينسجم الأفقي مع العمودي في تناغم معماري أزلي أبدي، وضعت شفرته الجينية في الخلق ذاته يد البارئ المبدع المصور.

وإذ تطل واجهة الجامع بصمت وشموخ على المشهد الحضري الذي يجري بين يديها، شاهدة على الأحداث الاجتماعية المتعاقبة أمامها متحدية حواجز الزمن الذي تطويه الدقائق والثواني وتلفه بعناية وتؤدة وبلا كلل في أرشيفات التاريخ المتراكمة، تتحرك أرجل الرائحين والغادين، وتتسكع أرجل أخرى هنا وهناك أمام المسجد الجامع. مشهد حضري، وحوار صامت في فضاء المعيشة اليومية «الصاخب»، يتكرر دون كلل أو ملل، تتبدل فيه الشخوص، أزواج من الأرجل، والآدميين إفرادا وزرافات، وتتعاقب زوايا الشمس على المكان، لكن جوهر المشهد الحضري ذاته، في دورته وتعاقبه، يبدو في ثبات نسبي.

الظواهر الحضرية: مشاهد متقطعة ومتصلة

يمثل المشهد الحضري (واجهة المسجد، والساحة، والأحداث الاجتماعية التي تدور أمامها وعليها) مسرحا اجتماعيا يروي ذاكرة المدينة النابضة بالتاريخ الفردي والجمعي. في هذا الوسط التاريخي، وفي محيط المسجد الحسيني الكبير، ثمة مجموعات من المشاهد الحضرية التي تستحق التوقف عندها، إذ إن لها، وكغيرها من المشاهد الحضرية دلالات تاريخية واجتماعية واقتصادية، فضلا عن جذورها العميقة التي تضربها في ذاكرة ووعي الأفراد والجماعات من القاطنين والمسافرين وعابري السبيل. أمام هذه المشاهدات الحضرية يقف الناظر «بعين المستكشف»، متأملا مشاهد متعددة، اجتماعية، سبق أن تكررت لدرجة المألوف المتكرر. بيد أن هذا التأمل يعيد ترتيب المشهد الحضري، والصور الانطباعية، بعرض بطيئ، يسرع تارة ويحرك المشهد بإيقاعات متلاحقة تارة أخرى تتوقف الثواني والدقائق وتتجمد حينا عند لحظة تكاد تؤول للصفر، وتصدح «بصمت» من خلال صورة انطباعية شبه الثابتة، ملامح عمرانية وممارسات اجتماعية، تتحرك متعاقبة «كإطارات صورية» في فيلم حضري صاخب، مثقل بالمعاني والدلالات، والخطرات، والنبض الحضري.

ومع كل ذلك، وحوله، وفي خلفيته، يقف المتأمل لهذه الانطباعات الحضرية، مراقبا، رائيا، ومستقبلا لها، كمثل «شبكية الإبصار» التي تنقل «ترجمات» المبصر، لتحيله إلى «العقل» المترجم. هذه الخواطر، هي بمثابة تحويل الصورة إلى «كودات» ثقافية واجتماعية وبيئية، تنقل العمارة والمشهد الحضري من عالم «المبصَر الذي يتم إدراكه تلقائيا في مرحلة اللا واعي»، إلى «مجموعة من المناظر والمستويات الاجتماعية والبصرية والثقافية والبيئية» التي يمكن «وعيها» وتحليلها، منفردة أو مجتمعة، في مجال ومستوى من الفهم الواعي للبيئة، أو البيئات المبصرة، وغير المبصرة، والمستويات المختلفة التي تحتويها، والتي تزوغ عن الإدراك التحليلي، نظرا لتعقيدها وتداخل مستوياتها الثقافية والاجتماعية والبصرية الإدراكية والاقتصادية والسياسية والبيئية، نظرا لأن هذه الأبعاد جميعها قد تزوغ عن التأمل للرائي والناظر بسطحية للمشهد الحضري. وهكذا تصبح قراءة المشهد الحضري «تفكيكا» للظواهر الحضرية، تفصله عن مستوياته، وتعريه، وعن قاعدته «المسرحية» التي يدور عليها، وتكون بمثابة إعادة ترسيم الصورة اعتمادا على الأدب البياني، وما ينتج عن ذلك من «قراءة ما بين السطور» في اللحظات والثواني والدقائق التي تتم به مشاهدتها، وما ينتج عن هذه القراءة، ضمن معادلة معطياتها عوامل الزمان والظرفية والعامل النفسي واللحظي، بما يحيل المشهد الحضري «مفككا» إلى ما لا نهاية له من الصور البيانية الانطباعية التي تترسم في مخيلة المشاهد، وتنتج ما لا يحصى من القراءات لمعاني ودلالات تلك القراءة. كل هذا يعيدنا إلى هدف القراءة أساسا، وهو إعادة اللحمة بين «ترسيم الصور الانطباعية»، وتنمية «الخيال الإبداعي» في وعي المشهد الحضري بأبعاده ودلالاته المختلفة، وبيئاته المتعددة، التي تزوغ عن إدراك «الصورة الثابتة» التي ترسمها الكاميرا، أو تجسدها «لحظة التفاعل بين عين الرائي وبين المشهد الحضري» وهي لحظة محدودة!

والمشهد أو الظاهرة الحضرية لا بد لها من توفر عناصر ثابتة وأخرى متحركة: الثابت يشكل الخلفية أو المشهد الأمامي لمسرح الحدث، بينما يشكل المتحرك العناصر الاجتماعية التي تصنع الحدث وتعاين التجربة الحضرية بما فيها من أحيزة فراغية تصنعها العناصر العمرانية البسيطة والمعقدة. ولتلخيص المشهد في الظاهرة الحضرية لا بد من توفر عناصر ثلاثة أساسية هي: خلفية المشهد الثابتة وإسقاط هذه الخلفية على مسرح الحدث والحدث ذاته. وفي حالة الوسط التاريخي لمدينة عمان هذه العناصر الثلاث في الوسط التاريخي للمدينة هي: خلفية المشهد (الجامع الحسيني الكبير) وإسقاطها على مسرح الحدث هو (ساحة الجامع وما يتفرع عنها من أحيزة فراغية تجارية وطرقات فرعية نافذة وغير نافذة) والحدث الاجتماعي. وفي هذه المساحة نبدأ بالعنصر الأول.

المسجد الحسيني الكبير: قراءة تاريخية

تعتبر الكتابات التاريخية المتوفرة عن المسجد الحسيني الكبير بعمان فقيرة جدا مقارنة بغنى هذا المعلم التاريخي ورمزيته للوسط التاريخي لمدينة عمان. وقد وصفه بعض الرحالة الذين مروا بالأردن مثل كوندر، كما قدمت بعض الدراسات التاريخية والأثرية الخجولة بعضا من وصف مقتضب جزئي لهذا المسجد الكبير. وقد أورد كلاً من الجغرافي أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان»، وصفاً للمسجد الأموي القديم، بأنه يتألف من صحن تحيط به من الجهات الثلاثة سقائف محمولة على أعمدة، ثم بيت للصلاة سقفه محمول على أعمدة تتجه عمودياً نحو حائط القبلة.

ويعتبر المسجد الحسيني أقدم مساجد المدينة، وله أسماء متعددة كما يرد في بعض الوثائق التاريخية، إذ أحيانا يطلق عليه المسجد الأموي، وأحيانا المسجد العمري، إلا أن الاسم الأكثر شيوعا هو المسجد الحسيني الكبير نسبة إلى الشريف حسين بن علي، الذي رأى أن يجدد بناءه فأمر عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ببناء مسجد جديد في موقع المسجد الأموي القديم، حيث استمر العمل به حتى عام ١٩٢٤م.

ويتبع نظام بناء هذا الجامع النظام القديم للمساجد الجامعة في الإسلام، من حيث فناءه الوسطي الكبير والأروقة الطولية الموازية لجدار القبلة. وصحن المسجد مستطيل مكشوف، واتساعه ١٣٥ قدماً طولاً و١٢٠ قدماً عرضاً، وله ثلاثة أبواب في الجانب الشمالي منه، يبلغ اتساع كل منها قرابة سبعة أقدام، وقد زين الصحن بالفسيفساء ذات الرسوم الجميلة. وهو مبني من الحجارة المنحوته المشهرة. وقد استخدم في بنائه الخلطة الاسمنتية، والتي اقتصرت استخدامها أول الأمر في بناء المئذنة الشرقية ذات الخوذة الحجرية التي تهدمت في زلزال ١٩٢٧م، فتم استبدالها بالخوذة الخشبية. وفي الأربعينات من القرن الماضي، تم توسيع صحن المسجد وأقيمت في وسطه ميضأة، كما أضيفت المئذنة الغربية بارتفاع أكبر مشابهة للمئذنة الشرقية بخوذة حجرية. ويبلغ طول المسجد ٥٨,٥ متر وعرضه ١٢,٥ متر، وتبلغ مساحته حوالي (٢٠٠٠) متر مربع، ويتكون من صحن رئيس تتوسطه ميضأة مثمنة الشكل، تعلوها قبة محمولة على أعمدة. ويحيط بصحن المسجد أروقة من جهات ثلاث. وتبلغ مساحة قاعة الصلاة ٦٣٠ مترا مربعا، يتوسطها من جهة القبلة منبر ومحراب.

أما بيت الصلاة فله ثلاثة أبواب في الجدار الشمالي، ويعتبر الأوسط منها المدخل الرئيسي له، وفوقه عتب مستقيم، وارتفاع هذا الباب ١٦ قدماً وعرضه عشرة أقدام. وأما البابان الآخران فهما على جانبي الباب الرئيسي وكلاهما على شكل مستطيل. أما فتحة البابين الشرقي الغربي فتبلغ كل منهما سبعة أقدام ويعلو الأخير عقد مدبب، بينما يعلو الأول عتب مستقيم طوله تسعة أقدام وفوقه عقد مدبب. ويبلغ طول بيت الصلاة ١٢٠ قدما وعرضه ٣٧ قدما ويتكون من سبع بلاطات عمودية على جدار القبلة، وتمتد البلاطة الوسطى عموديا من الباب الأوسط الرئيسي على المحراب. ويقوم سقف بيت الصلاة على دعائم تتعامد مع جدار القبلة، يتدلى منها عقود مدببة، ويستند العقد الأخير في الجهات الأربع على دعامة ملتصقة بالجدار. وقاعة الصلاة لا توجد بها نوافذ إلا أربع تعلوها أقواس نصف دائرية في الجدار الشمالي المواجه لجدار القبلة. أما المحراب فيتوسط جدار القبلة وهو مجوف يبلغ اتساعه ١٢ قدما، وقد بني في داخل تجويفة المحراب محراب آخر أصغر منه.ويقع المنبر إلى جواره من ناحية اليمين.

وللمسجد مئذنتان مختلفتا الارتفاع، وفي كلتا المئذنتين زخارف جميلة عند شرفة الأذان. وقد بنيت المئذنة من الحجر ولكن أصغر حجماً من التي بني منها الجامع نفسه. والمئذنة تعتبر من أقدم المآذن التي بنيت في الأردن، ويدور بداخلها درج عدد درجاته ٣٣ درجة، ترتفع كل واحدة عن الأخرى نحو قدمين. وفي أعلى المئذنة شرفة بارزة عن بنائها ترتكز على كوابل حجرية تقوم مقام المقرنصات. وفي أسفل المئذنة من جهة الشرق باب صغير مستطيل يعلوه عتب مستقيم، وفوقه كتبت الشهادتان. أما واجهة المسجد الرئيسية فتمثل لوحة معمارية جميلة من الحجر المنحوت بشكل متناظر، وطولها ٤٣ متراً. يتوسطها المدخل الرئيس للمسجد ذي الأمتار الثلاثة، ويحيط به عمودان منحوتان بشكل لولبي، وتعلو ثلاثة أقواس هذا المدخل على شكل متدرج تعطي المدخل عمقاً. وفي الجزء العلوي من الواجهة توجد أربع فتحات مشابهة للفتحات السفلية للأبواب الجانبية وتقع فوقها مباشرة، إضافة إلى أربع فتحات دائرية فوق الأبواب. ويعلو الواجهة مقرنصات على شكل أقواس نصف دائرية محلاة بزخارف مشغولة يدويا. وقد وضعت فوق المدخل الرئيسي لوحة من الرخام نقشت عليها أبيات تسجل تاريخ البناء.